

"الفصل الخامس عشر"

أزمة الختام

كانت الشهور التي أمضاها العم زيد في جوار البيت الحرام، تختلف عن السنين السابقة ففي بلدته الأهل والقرابة، وفي مصر الحضارة والتمدن وتنوع البشر، أما البلد الأمين ففيه اخلاص الطاعة لله والعمل الصالح. والرفاق على شاكلتين الأولى تحته لسرعة التوجه للحريق والمفجر، والأخرى تريد العودة لمصر حيث الهناء والرخاء. لكن الأنباء التي وردتهم من المطرية لم تشجع على ذلك، حيث قيل ان الوالي عباس بن طوسون زادت شطحاته، وأخذ يسيء لبعض قرابته ويجزل العطايا للأبعاد، وينفق ببذخ على شؤونه الخاصة، من قصور وبساتين وجواري وخدم. وقد أثار ذلك حفيظة أبناء عمومته، أما عمه سعيد فقد أشهر للملاء، اعترضه على اغداق المال على رجال وأعمال لا طائل من ورائهم، وبدا ان هناك شرر يتطاير ويتخوف الكثير من عواقب وخيمة.

وصل ركبهم إلى الحبونية جنوب الرياض، حيث تمكنوا من تصريف معظم السلع بأثمان مربحة، وفي أمان حيث نظم الإمام فيصل بن تركي السبل، وقضى في السنوات الماضية منذ عودته من مصر على اللصوص، كما أخذ الفتن بين البلدات والعشائر. تعرف أثناء ذلك بأحد تجار معكال، الذي بدت عليه سيماء الصلاح، ثم دعاه لمأدبة في بيته يحضرها بعض أعيان غرب الرياض، وقص عليهم العم ما جرى في الدلم من معارك بين الإمام فيصل وخورشيد باشا، وانتهت بقبول مغادرة الإمام فيصل دياره للمنفى المصري. وطلبوا من أحد المدعويين ان يقص عليهم تفاصيل أعوان الإمام، الذين ساعدوه في استرداد إمارة الرياض، التي تحصن فيها الثنيان وأبي التسليم، فقال لهم الرجل وهو من تميم انه كان في العيينة، وسارع آل معمر بالتوجه معه إلى سدوس، حيث تزوج فتاة من القرابة (آل مقرن) وبقي عندهم فترة ريثما تتجمع القوات من حائل والقصيم والحائر والأحساء. لكن المعمر لم يساهموا في دخول الرياض بكثرة، حيث كانوا متألمين مما جرى زمن مشاري وخالد بن سعود، بعد تدمير الدرعية ومغادرة إبراهيم باشا نجد.

لقد كانت أكثر الحشود من حائل، ولم يتمكن أميرهم عبدالله بن رشيد من المشاركة، فأرسل أخاه عبيد معهم لمرضه، وظن البعض انه متمارض أو مبغض! حيث كانت له طموحات منذ زمن الإمام تركي، وأيد قوله آخر بالقول ان الرشيد كان قد دبر أمر مع سويد (راعي جلاجل) لقتل تركي أثناء سفر ولده فيصل للقظيف، بصحبة الرشيد ومعه أناس من المحمل والفرع وسدير. لكن فيصل تنبه للخيانة وتظاهر بعدم بلوغ

بناء اغتيال والده، إلا بعد ان غادر سريعاً للأحساء حيث العفيصان (الخرج) وسداری الغاط، الذين أبطلوا الغدر ووفروا الحماية، فتفرق الخونة وتوجه أكثرهم إلى بلادهم، وجاء مدد كاف مع فيصل للرياض، لكي يقبض على قتلة والده ويتولى الحكم، لكن العم لم يثبت من صحة ذلك. قال آخر ان آل رشيد لم تكن لهم سابقاً طموحات للرئاسة، سواء في منطقتهم أو خارجها، فهم من آل عبدة (طيء قحطان) قوم حاتم، إلا ان الإمارة في بنو عمومته (عبدالمحسن) وقد كان عم عبدالله هذا (جبر) ماهر في الحساب، ويعمل لدى الإمام سعود (أبوشوارب) في الدرعية، وتوسط لتعيينه في جباية الزكاة من بادية الشمال. وبعد دمار الدرعية استعان به الإمام تركي ثم ولده الإمام فيصل لتولي بعض شؤون منطقة حائل، وقام بذلك بشكل مرضي لهما مظهرأ الولاء، مبطناً تقديم مصالحه على كل شيء. وبعد وفاته قام ولده بما ولاه إياه فيصل، فأدار شؤون الجبلين لعشرين سنة (أجا وسلمى) بفكر توسعي ومالي وأمني، وحصل على نفوذ كبير في شمال جزيرة العرب وحتى المدينة المنورة، بخاصة من خفارة الحجاج من البصرة، وجلب كثير من الصنائع المهرة (شيعة وسنة) وبنى قصر كبير حوله متاجر واسعة (برزان) يبرز خارج البلدة، التي غدت درة بلدات وسط جزيرة العرب. لكن بعد وفاته (منتحراً أو نحروه؟) ثارت فتن بين ذرية عبدالله بن رشيد وقتلوا بعضهم البعض، حتى آل الحكم لأصغر أبنائه محمد (المهاد) الذي سيطر بقوة على حائل. ثم لما مات الإمام فيصل ونشب نزاع بين أبنائه، تدخل في أمرهم وحرصهم على التباعد والاقبتال، واستعان بحفيد قريبته الأمير تركي بن عبدالله حفيد الإمام، لإنكاء النزاع بين ذرية فيصل. وبعدها عمل سلاحه في بقية الحفدة فسجن وقتل عدد منهم، ونفى آخرون وهرب البقية خارج نجد، وسقطت إمارة آل سعود في الرياض.

كان من بين ما قصوا على العم زيد، ان ممن ساعدوا الإمام فيصل على استعادة الحكم، عشيرة من البدارين (دواسر!) يسكنون قرب الثويرات (ذي مرخ) في الزلفى، يقال لهم السداری جاء بعضهم لمبايعة الإمام تركي، لما نزل من علية الحريق لضرماء قبل عشرين سنة، واستمروا يساندونه وولده فيصل بإخلاص وأمانة. واسندت لهم أعمال في المحمل وسدير والأحساء، فقاموا بها على أكمل وجه، ولم يطمعوا قط في عض يد الإحسان ليحصلوا على منصب تافه، وصاهرهم آل سعود فكانوا أحوال الملك عبدالعزيز رحمه الله ثم الملك سلمان رعاه الله. كما جاء لمساندة الإمام فيصل في حصاره للرياض، رهط من آل عفيصان (خضرمة الخرج) معهم مقاتلين من قحطان الأحساء، وهم كانوا أعوان آل عايد الذين حكموا المنطقة لزمن طويل، ورغم مصاهرتهم لبعض إلا ان العفيصان لم ينقلبوا ضد آل سعود، بل بقوا أوفياء لدعوة التوحيد والإصلاح، وحتى إبراهيم باشا فشل في تجنيدهم، أثناء تدميره للدرعية وبطشه بآل سعود وأنصارهم. في صلب السيرة سأخبركم تفاصيل عن أقوام ساعدوا في فك الحصار، وعن علاقتي مع بعضهم في الزمن اللاحق.

لما وصل العم للحريق تلقاه أناس بالحبور، وغيرهم بالفتور أو التجاهل أو البغض والحسد، وتوجه فوراً للدعاء لجدّه (علي بن حمد) الذي توفي قبل ذلك، ثم انصرف لتدبير شؤون حياتهم. وكان على رأسها مفاتحة والدته في وجوب تزويج أبيه، حتى لا ينقطع نسل عبد الله بن علي، حيث ليس لديه ذرية ذكور فوافقت، لكن الأب رفض ذلك وفوض أمره لله، لكن العم أكد له انه ليس زكريا عليه السلام، ويجب تحري أسباب الذرية الصالحة، فرفض والده ذلك قطعياً. أخذ يستصلح الأراضي البوار التي اشتراها له والده، كما يقوم بتطعيم الأشجار بأغصان أخرى مشابهة، حتى تتحمل الجذور الملوحة والجفاف، إضافة لعمله في تهجين وتلقيح بعض الأنعام الحرون، ذات الصفات المرغوبة لكنها ليست مطواعة للفحل. ويتولى رعاية النخيل الفارعة الطول الجيدة الثمرة، حيث يأبى العمال تسلقها خشية الدوار والسقوط، واستفاد من خبرته في مصر مع عمال النوبة ولوبيا لإنشاء مباني متينة من الطين والجص، وقطع بعض الأراضي غير المستزرعة لتكون منازل. سافر في المواسم شرقاً للتجارة مع عملاء جده، ثم يُصرّف أكثرها في الدلم، ويعود بما يتبقى للحريق للبيع بسعر منخفض أو الإهداء، للقراءة والمحبين وذوي الحاجات. لم يصاحب والده في زيارته للإمام فيصل، لتجنب تحسسه من هواء الرياض زمن كنة الثريا، وأثر البقاء لرعاية والدته وبعض ذرية أعمامه، وتدبير أمور المزروعات والأنعام والمباني. كان يرحمه الله يتجنب مصاحبة بعض المزاحين في السفر، فمنهم من يتبسطون في المسامرة ويلقون كلمات سفهية، مثل صعوبة تلقيح بعض النياق والأبقار والشياه، أو الكلام عن مجالسة الزوجات وغيرها من عبارات اللمز البذيء. كان يبغض من يطيبون كلامهم بعبارات ظاهرها المجاملة، لكن وراءها قصد خبيث مثل الاستهزاء أو طلب قرض! كان في وسط سوق الحريق (الحلة) بعض الصرافين، وتجار المداينة ممن يمتنون اقراض الناس بأساليب ملتوية، بدعوى عدم تعاملهم بالربا يخادعون الله وهو خادعهم. يتقاضون زيادة على أصل القرض، تتراوح بين العشرة اثنا عشر وثلاثة عشر، للسنة الواحدة وهي ربا فاحش إذا كانت نسيئة وعلى معسر! أما العم زيد فكان يقرض المحتاجين بدون فوائد، ومع ذلك يماطل بعضهم في السداد، فيستخدم معهم الضغط ومن ذلك ذهابه لمنازلهم مع خدمه، لأنه "طالب حق وفي يده معдал" وهي حديدة طولها ذراعان (نحو 80 سم) للبتان. كما يتنازل عن جزء من القرض للمتعسرة أحوالهم، ويمهل آخرين مدة إضافية للسداد، ويجعله على دفعات متباعدة زمنياً. وقد قص على ابن أخيه (والدي رحمهم الله) ان رجل مقترض منه دعاه لوليمة، فرفض لأنه يرى حرج في أي فائدة من المقترض، فعزم الرجل على والده ان يحضروا عشاء للجماعة عنده. وفيه قدم الشكر للعم زيد أمام الحضور، مع صرة فيها ريبالات فرانسة للسداد، وبيان ان صرافي الحلة اشترطوا عليه العشرة ثلاثة عشر، ودعا الله ان يبارك للعم في ماله، حيث قدم له قرض حسن بمهلة طويلة. كما كان يقدم قطع أرض صغيره، ومعاونة لبناء منزل لبعض عمال الحلة، الذين أنهكهم السادة بمشقة العمل، حتى فقد بعضهم سمعه أو بصره وحركته، ولم يعد لديهم مأوى أو مال يتعيشون منه وعيالهم،

بخاصة الصناعات وعمال الصياغة والحداة والدباغة. ويتكفل برعاية الأيتام والأرامل، وذوي العاهات والعجزة، في بيوت مستورة تصلهم نفقة شهرية.

استمر في عمله التجاري مع عملاء جده وأبيه، حيث يتوجه للساحل الشرقي مرتين كل سنة، لجلب بضائع الهند وفارس وجاوة والصين، يبيع بعضها في الخرج والحريق، ويرسل الثمين للعراق والشام مع العقيلات. وكانت التجارة مزدهرة والأمن مستتب، بعد ان قامت الشركة الشرقية (الهند) بمحاربة قراصنة البحر، ووضع مراكز لها في الشارقة والفجيرة، فور سقوط الدرعية ثم تزايد التواجد بعدها، رغم جشع وكلاء تلك الشركة، وتقاضيهم مكوس باهظة على بعض البضاعة. زيارة الحرم المكي في معظم السنوات، ترتب للحج أو عمرة رمضان بالتناوب، ليس لأداء المناسك فحسب بل للتفقه في الدين أيضا. فتتوفر هناك حلقات العلم مع شيوخ وعلماء من بلاد الإسلام، والكتب ذات الطباعة الجيدة والورق المتين والتغليف المتميز، تصل من تركيا والهند والعراق والشام بكلفة غير باهظة. ولا يعكر الصفو هناك سوى الضرائب النقدية، والمشاكسات بين أشرف مكة أمر معتاد، لكنها تتطور أحيانا لتصبح دموية مسيئة للمصلين في أروقة الحرم.

ذات يوم كان مع عماله في بستان قديم، به نخلات فارعة هضيمة لا يجرو على تسلقها، للرعاية والحصاد إلا ذوو الخبرة العريقة والمهارة والقوة الجسدية. ولما صعد العم أعلى إحداها، لتجهيز اللقاح رغم ان الغالبية يرون عدم جدوى ذلك، ويفضلون قطعها وأكل جمارتها الحلوة وغرس بديلة مكانها، ولم تكن عادته اختلاس النظر من شاهق نحو الجيران، لكن وجود رجل وحيد على سطح المنزل ألفت انتباهه. أصابته صدمة لما تحقق ظنه ان الرجل هو والده، الذي كان نظره قد بداء يضعف، وربما أنه قد اختلطت أحاسيسه ودخل المنزل يحسبه بيتهم، لذا تجهز لسرعة النزول والتوجه نحو أهل البيت، قبل ان يحدث ما لا تحمد عقباه خاصة أنهم ليسوا من الجماعة. في تلك اللحظة شاهد فتاة تدخل عند والده مفرعة الرأس، وأخذت تحادثه ثم جلستا في ظل السترة، لذا توقف عن الهبوط وأخذ يدقق النظر، يشك ان عيناه قد دخلهن الوهن، لكن دخول امرأة ترافقها خادمة، وهي تحمل طبق ضيافة جعله يدرك الأمر. عند المغرب انفرد مع والده على الطعام، ثم دقق النظر فيه قائلاً "على البركة العرس" فنهره أبوه متسائلا عن أبلغه الخبر غير الصحيح، فشرح له ما شاهده وأنه يعرف مويضي، قبل سنوات وهي تلعب مع الصغار. أوضح له أنه لم يكن يريد جرح خاطر أم زيد، فطمأنه أنه سيتولى الأمر معها، كما سيقوم مأدبة حافلة للجماعة وأهل المرأة (الكثران) والجيران وأناس من أهل الحريق. وبين ان كتمان الأمر قد يجلب الشبهات من المبغضين، وهذا أمر شرعي يدخل السرور على المحبين، فبشره والده أنها حبل في الثالث فدعوا الله بالبركة والصلاح. وأثمر ذلك الزواج عن عدد من الذرية المباركة، أحدهم جدي عبد الرحمن، الذي عرفته في مكة المكرمة مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، حيث كانت لا تفارقه مسحة من الغم والحزن العميق، على شقيقه

الأكبر حمد، الذي اغتالته يد الغدر والبغي في المسجد أثناء صلاة الفجر، قبل أكثر من أربعين سنة. ورغم انشغاله بأداء الشعائر في البلد الحرام، أو العلاج في المستشفيات الحديثة في جدة، إلا أنه كثير التوجع لفقد شقيقه، لا يبالي بالمواساة من أكبر الأبناء (والدي عبدالله) أو من (ابن الشقيق) العم علي بن حمد رحمهم الله جميعا، داعيا المولي ان يعيد اجتماعهم في جنة النعيم. ورغم القدر الجم من الكدر فلم أسمع قط يشير بضغينة للأوباش، الذين ارتكبوا تلك الجناية الفادحة، بل يسأل الله العفو والعافية وحسن الخاتمة.

بعد عدة سنوات أمضاها العم زيد في عمله، يجتهد للمكسب الحلال ويفعل الخير، وهو في سرور لمشاهدة إخوته وأخواته، يملؤون البيت سرور وحبور، استجاب لإلحاح والدته وتزوج من أرملة، ولادة (معتادة) أصغر أولادها بلغ الفطام. كانت امرأة نجبية ودود ذات همة وصلاح، ترعى شؤون العم وهو متكفل بذريتها كما لو أنهم من صلبه، ولم يسلم من همز ولمز بعض الفساق، لكنه لا يكثرث للهمهمات أما من يواجه بذلك فلا يجد ما يسره. كان أكثر ما يهمله هو التعليم، فجل شغفه التفقه في الدين، ثم يليه اتقان الكتابة والحساب، فهما عماد النجاح في الحياة، وهو دائم التحريض لإخوته الصغار والايام الذين في حضانتهم، على توجيه انتباههم لبذل كثير من الفكر أو الجهد لطلب مزيد من الفهم والعلم. تشييد المباني من الحرف التي لا يعمل فيها، لكنه يحرص على متابعة انجاز ما يخصه على الوجه الأكمل، يأخذ الصغار في مسيرات لمشاهدة أساليب البناء السائدة آنذاك، بخاصة أسس القواعد الحجرية للحوائط الحاملة للأسقف، والأعمدة الحجرية التي ترتكز عليها المساحات الواسعة، سواء في الباحات أو المصاييح. رغم ان معظم منازل الحريق كانت مباني مبسطة، ذات جدران من الطين اللين وأسقف من جذوع الأشجار، يفرش عليه حصير ثم يغطي بالطين المخلوط معه قش القمح أو نباتات أخرى، ثم يكسى بالجص الأبيض من الجير المحروق، إلا ان بعض الأثرياء بينون منازل واسعة متعددة الطوابق. ويشرح للصغار أنواع الأشكال الهندسية، فالأبواب مستطيلة والنوافذ مربعة وفتحات التهوية مثلثة، ويناقش عمال البناء والأساتذة حول تحسين الأداء. يحث الصغار على فهم الأمور والمشاركة في الحوار، ينصت لمربياتهم ويشجع على توسيع المدارك، حتى تنمو قدراتهم الفكرية والنفسية، على أفضل نحو ممكن. عمله التجاري واجه انتكاسة بعد سنوات من الازدهار، فقد حدثت قلاقل في الهند، التي تجلب منها بضاعة جيدة، والمتسبب في ذلك هي الشركة الشرقية، التي أوكل لها منذ سنين طويلة إدارة مصالح بريطانيا، في الهند الكبرى الممتدة آنذاك من جنوب شرق البنغال (بورما) حتى شمال غرب السند قرب الطاجيك. وقد عملت نظام جيد لتسيير عملها التجاري، لكنها توسعت لاحقا فصار لديها جيش مدجج بالسلح الثقيل والمدافع، ونكلت بأهالي البلاد المعترضين على التعسف، بخاصة المسلمين الرافضين ترويح مخدر الأفيون المحرم، وقد سبب ذلك مجاعة وأمراض قتلت أعداد كبيرة من السكان. فثار الناس على عساكر

الشركة، وأدى التمرد لتعطيل حركة السفن والبضائع، وألغى العم خطته للسفر للهند آنذاك، ونقصت حتى السلع الواردة من جاوة والصين، بسبب تلك القلاقل وظروف الاضطرابات. لكن الضائقة انحسرت لما علمت ملكة الانجليز بالحال، فقيدت سطوة الشركة الخبيثة وسحبت بعض امتيازاتها، وعينت حاكم للهند من طرفها، وأوكلت لبرلمان لندن التفتيش على الأعمال.

رغم حدوث نوبات من الأمراض السارية في البلاد، سواء المعوية أو الصدرية أو الدملية، قد تؤدي لوفاة البعض، ومواسم من الجفاف والقحط، إلا ان جنوب اليمامة كانت في رخاء نسبي تغيظه عليه عدة مناطق من الديار السعودية، سواء في نجد أو الأحساء وحائل وأجزاء قليلة من الحجاز. وكان الإمام فيصل بن تركي قد عهد لثاني أكبر أبنائه (سعود) لتولي شؤون المنطقة، وأما ابنه الأكبر (عبدالله) فقد ولاه قيادة بقية المناطق، والإشراف على الأمن والمالية من مقره في الرياض. كان الأمير سعود نعم الحاكم للخروج وتوابعها، في السيح والدلم والحوطة والحريق والأفلاج واللدان، يعمل على رعاية أحوال السكان، ويبتعد عن اثارة الفتن والحزانات بينهم كما كان الحال طيلة القرون الماضية. بخاصة زمن العايزية الذين أثاروا وحرصوا على الفتن، في نعام والحوطة والحريق والمحمدي قبل قرنين من الزمن، حيث سياستهم على مبدأ "فرق تسد" لكي يسيطروا على أحوال الديار، مما خلق حزازات وتناحر بين الأهالي والجيران، ما زالت آثاره باقية حتى يومنا هذا بعد اندحار سلطانهم. أما الأمير سعود بن فيصل (الإمام لاحقاً) رحمه الله، فقد كان ذو مناقب حميدة وخصال فاضلة، ينهى عن الحزازات الأهلية، ويساهم بجاهه وسلطته وماله لإخماد الخلافات الأهلية، ويكبح جماح تطورها لتكون فتن خبيثة وثارات، جعل الله ذلك في ميزان حسناته وعفا عنه. وكان الكثير من الناس يقصدون مقره في السيح أو الدلم، لينالوا من عطايه الجزيلة أو قضاء لزومهم بوجاهته، وكان كثير من الناس يلقبونه "أبو هلا" لكثرة ترحيبه بالضيوف، لكن العم زيد لم يزره منذ توليه الإمارة.

في نهاية عشر السبعين (قرن 13هـ) أرسل الأمير سعود أحد أبنائه للحريق، ودعا كافة الأسر لإرسال مندوبين منهم، لمرافقته في زيارة لوالده (الإمام فيصل) في الرياض. وأمر الجد (عبدالله بن علي) ابنه العم زيد للنيابة عنه لتوعكه، وهناك شاهد ملامح الفخامة والثراء، تقارب ما قص عليهم جده (علي بن حمد) عن قصور الدرعية مع الفارق. بعد صلاة العصر جاء خادم وأخبر أهل الحريق ان لقاء الإمام بعد أيام، وقد أعدوا لهم مسكن جنوباً في معكال مقرن، عبارة عن مخيم من بيوت الشعر مجهز بالمستلزمات. لما دخل الحشد باحة الديوان، شاهد رجل نوبي يوجه المضايقية، رد العم التحية عليه بما لديه من علم محدود باللهجة النوبية النيلية الشمالية، التي عرف شيء منها في محادثته مع عماله بالمطرية، وهي مزيج من العربية والعفرية والقبطية. تحادثا قليلا أثناء الانتظار الطويل لاقوم للإمام للمجلس، وفهم العم من النوبي أنه جاء للدرعية، فتى صغير عند حريم الإمام سعود (أبو الشوارب) وفر من الدرعية للوشم

عندما باشر إبراهيم تدميرها، ثم عمل مع الإمام تركي وولده فيصل، وثقلت حركته الآن ويرتب للعودة لأهله قريبا. لم يحضر الإمام للمجلس إلا قبل العصر بساعة، يرافقه أخوه وأولاده عبدالله ومحمد وسعود، وحشد من كبار قرابته من بينهم شاب كثير الحركة متقلب النظرات. كان العم يعرف الإمام وولده عبدالله في مصر، وساءه تدهور قدراته وضعف سمعه وبصره، ومع ذلك أجلسوا بجواره ثلاثة غرباء، لم يدرك العم كنه حديثهم لاتساع المجلس، وشاهد أحدهم يقدم له فرد (طبنجة) ذو لون أصفر يشبه الذهب، ويحدثه عبر مترجم أجنبي يرافقه. لما نودي للخروج لتناول العشاء، انفرد الأمير سعود بوالده وأسر إليه بكلمات، ثم أشير للجماعة للتقدم قرب الإمام، وتكلم أربعة من الكبار بالثناء على ما يقوم به الأمير سعود من جهد في المنطقة، لتوطيد الأمن واستتباب الرخاء وكبح جماح النزاعات، وألقى أحدهم أبيات من قصيدة يذم فيها الوشاة والمخادعين. عند المغادرة طلب النوبي من العم زيد ان يختار ثلاثة من الرفاق، ويبقوا عند غرفة المعاميل حتى يذهبوا سويا لمكانه، ويلتقوا مع الأجانب ويحادثوهم لسبر غور أفكارهم، وأنه سيدبر سبيل عودتهم لمعكال ليلاً.

بعد المغرب جاء عثمان ومعه الغرباء، وأسر للعم كي يتناقش مع أحدهم الذي يدعي أنه مصري، وله زميل يدعي أنه شامي يترجم لكبيرهم، وهو ذو ملامح أفرنجية من أوروبا لا يكاد يحسن شيء من العربية، يتظاهر أنه يعمل في تجارة الأدوية والعطور. جلس رفاق آخرون مع الشامي، يحادثونه حول قصدهم من هذه السفارة، وكبيرهم يستمع وهم يشاورونه حول بعض الأمور، بلغة مجهولة ليست فرنسية ولا انجليزية، وفهم الجد من المصري أنه من وسط أوروبا، ربما النمسا أو بولونيا والجرمن، وله صداقة مع رجال في الباب العالي بإسطنبول. حاول العم التبسط مع المصري كي يستشف منه المزيد عنهم، ولم يبد له أي شك في أقواله، رغم تبيين أنه ليس مصري حيث لديه لكنة غير عربية، وارتبك عند سؤاله عن قرينه في الصعيد أو بحري؟ كما أن سراييله ليست من الثياب المصرية. وشك انه قد يكون من ذرية المهاجرين اليونان، الذين أمر السلطان بتهجيرهم قسريا (سفر برلك) من جزر ايجة أثناء حرب المورة، تحت اشراف إبراهيم باشا (مدمر الدرعية) قبل ثلاثين سنة. ازداد اهتمام رئيسهم بالعم لما علم عن معرفته بمعركتي الحوطة والدلم، التي وقعت قبل ربع قرن بقيادة إسماعيل بيك ثم خورشيد باشا. وركز تساءله على خفس دغرة وزميقة والسيح، وطلب معرفة أماكنهم بدقة وسبل الوصول لها، وعن صحة وجود بنايات طمرتها الرمال، وتوجد بداخلها كميات من الذهب والفضة والجواهر، وصرف العم نظره عما وصفه بالخزعبلات التافهة! قبل نهاية اللقاء تبسط معه ذلك الشاب المصري (أو اليوناني) وأفصح له ان رئيسهم أخواجة (الأستاذ) له علاقة وثيقة مع حلفاء العثمانلية، الطامعين في الاستيلاء على خيرات بعض ممتلكات إسطنبول، في مصر والشام والعراق وجزيرة العرب. لكن الفرنسيين والانجليز والروس يطمح كل منهم على حدة للحصول على ذلك رغم أنف دولة آل عثمان، وسرد له كيف ان الفرنسيين قد حصلوا على

فرمان من السلطان عبد المجيد، يتيح لهم الحصول على عمالة مسخرة لحفر الترعة المالحة ضمن الجهادية؟ وهي التي ستربط بحر القلزم (الأحمر) مع بحر الروم (المتوسط) مما يسهل التنقل بين الغرب والشرق، ونهب كثير من خيرات الشعوب المضطهدة، لصالح أناس في شمال أوروبا. أما الانجليز المبغضين لكافة البشر، حتى من ينحدرون من أصولهم ويدينون بالبروتستانتية، فهم الذين أوفدوا مندوب من الهند، ليهنئ إبراهيم باشا فور تدميره للدريعية، وما زالوا يعملون على مد سيطرتهم لوسط بلاد العرب، بعد ان أسسوا لهم قاعدة وموطئ قدم، في سواحلها الشرقية ثم الجنوبية (عدن) تحت ذريعة تسهيل التبادل التجاري، وتمنى ان تصل تحذيراتهم لقادة البلاد ليأخذوا حذرهم.

بعد مغادرة الغرباء جلسوا جميعا للتداول بشأنهم، وأوصوا ان يتم تحذير الإمام وأبنائه، من السماح لهم بالتجول في العارض، بل يرافقهم ثقات ليعودوا شمالاً من حيث أتوا. ثم انتقل حديثهم لعدة أمور متباينة، حتى استفسر أحدهم عن ذلك الشاب كثير الحركة، المقرب من الأمير عبدالله بن فيصل (ولي العهد) والمحاط بجمهرة من الحرس المسلحين. فتنهد عثمان النوبي في ألم قائلاً ان هذا هو سبب دعوتكم، وهو تركي بن عبدالله حفيد الإمام فيصل، الذي فيه سيماء جد أبيه الإمام تركي ويحبه كثيراً، ولا غضاضة في ذلك. لكن ما بلغني من قريبتني عند الحريم، ان خالات هذا الأمير يوغرن صدره، ضد أعمامه بل وضد أعمام أبيه (جلوي وعبدالله) ويؤكدن أحقيته في ان يكون خليفة والده لولاية العهد، مستشهدين بأن جده لم يجعل الولاية لأحد من إخوته بل لولده عبدالله. ووالدة الأمير تركي هذا أخت لطلال بن رشيد حاكم حائل، وهي امرأة حصيفة لبيبة لا تحض ولدها إلا على الخير، مع جده ووالده وأعمامه وقرابتهم، لكن بقية النسوة لسن كذلك. وقد أوعز لأحد ما ان يرتب تقديم عرائض، يشتكى فيها بعض أهل الخرج للإمام من تصرفات واليها (سعود بن فيصل) بغية عزله، ومن ثم ابعاده عن مركز النفوذ والطموح لولاية العهد. ولهذا السبب قرر الأمير سعود ان يحث أعيان الخرج ونواحيها للوفود لديوان الإمام، وبيان رضاهم التام عن أعماله وعماله، لكن للأسف ان فيصل تكالبت عليه العلل والشيخوخة، وغدت كافة أمور الديوان والبلاد، من أموال ومكاتبات وأختام في يد ولده عبدالله، الذي يطمح أيضاً ان يكون الحكم في ذريته وحده وليس لإخوته أو أعمامه. استاء العم زيد من تلك الأقوال، وتمنى ان تكون مجرد مشاعر وليست أفعال، ودعا الله ان يجنبهم جميعاً شر الفتن ما ظهر منها وما بطن، وقام مع الجماعة ليعودوا لمعكال.

أثناء اعدادهم للرحيل للمفجر وفد إليهم مندوبين من عنيزة، من حمولة حكاهما السبعان (بني ثور) يحثونهم على رفض زيارة الأمير جلوي بن تركي (أخ الإمام فيصل) حيث ما زال يحمل الضغينة على كافة عشائر سبيع. منذ ان تسبب بعضهم في محاصرته بقصر إمارة عنيزة قبل عشر سنين، ثم عزله عنها وعدم توليه منصب هام آخر، وقد يسمعون في داره ما يسؤوهم. أثناء التداول حول الأمر جاءهم أحد كبار

مرافقي الأمير سعود بن فيصل، وأكد لهم ان اللقاء مع الأمير سيكون ودياً، حيث لا علاقة لتلك الحادثة المؤسفة بالدعوة، ويمكن فيها إزالة أي سوء فهم أو كدر. أصر بعض من لهم مصاهرة مع سبعان عنيزة على عدم الحضور، وآخرون تذرعو برغبتهم العودة في الصباح، لكن المندوب أوضح ان بإمكانهم المغادرة فور تناول طعام الغداة مع الأمراء وقبل الظهر، حيث أن أبو هلا (الأمير سعود) حريص على مشاركتهم، ويرغب العودة للسيح مبكراً أيضاً. كان العم زيد مع التلة المتوجهة للأمير، ممن يوقرون الأمير سعود بن فيصل، ويعرفون صنائعه الجميلة معهم، وقد توافقوا على احتمال ما قد يبدر من الأمير جلوي، حيث ان ما جرى من حصار وشغب عند قصره، أمر غير يسير وجر لعواقب سيئة. عند دخولهم مجلسه هب واقفاً، وصافح الجميع غير متبسم لكنه ليس متجهم، ثم سأل عن أنبائهم المجاورين له، ودعا الله لهم بالرشاد وتكلم معهم بما لم يسمعه العم، الذي كان في منتصف المجلس حيث أنه نائب عن والده، وجلس بعض من كبار آل خثلان مع العريينات على يمينه يحادثونه. ثم رفع سبابته اليسرى بشهادة ان ما جرى لذلك الثوري، لم يكن بأمر منه ولم يرضه، لكنه تصرف طائش من أحد خواصه، وأنه لا يقبل ان يُسخر شيخ وقور لحمل متاع. وكان يود لو تمت تسوية الأمر بطريقة هادئة وبما يرضي بني عمر كلهم وليس فئة منهم، فتدخل الأمير سعود بن فيصل وتحدث عن مناقب عمه، ثم أثنى على السبعان ووقفهم المشرف ضد الأعداء. سكنت الخواطر لولا ان طفيلي في أقصى المجلس، رفع صوته بالقول ان خورشيد قد أعجبتة عنيزة، بخاصة هوائها ومائها ونسائها، وأقام فيها شهور أكرمه فيها بني ثور، وسخروا أنفسهم لتشييد قصر منيف له، فأشار له الأمير بأن يصمت عن اللغو، ثم جاء أحد المضايفية واصطحبه للخارج.

في بلدتهم عاد العم زيد وأعمامه وجماعته لمزارعهم وأنعامهم، يعانون المصاعب مستعينين بخالقهم ليبارك لهم في عملهم، أما التجارة عبر السواحل الشرقية فقد ازدهرت، حيث قلة حدة الفتن في الهند الكبرى، وتيسرت سبل النقل البحري بين موانئ العرب من مسقط والفجيرة والشارقة حتى العقير والقطيف، مع كراتجي وممباي وقوا حتى كيرلا (خير الله) جنوباً. والأمير سعود يحكم جنوب العارض بالعدل والسوية، يواسي النكبات ويقضي الحاجات ويقمع النزوات ويمنع التعدييات. ورغم الشظف فالناس يرفلون في أمن وسكون، حتى بلغهم نباء شدة المرض على الإمام فيصل، وغدت تنتابه نوبات من الغيبوبة. وبعدها بشهور قليلة جاءت فرقة مسلحة، يفوقها ثلاثة من القحاطين معهم أحد ذرية الشيخ محمد بن عبدالوهاب، برسالة للأمير لكي يتوجه للرياض، حيث الأمر يتطلب وجوده هناك، وقد فهم منهم أن حالة والده سيئة. وإن أخاه الأكبر (عبدالله بن فيصل) يتولى زمام الأمور، وهو بحاجة لوجوده بجواره ليعاضده في ذلك، وتكلم بعض الناس في الحريق عن جعل الأمير سعود ولياً للعهد، حيث ذهب مع حاشيته وعياله للرياض. في السنة التالية جاءهم نباء وفاة الإمام، فذهب حشد من آل خثلان للعزاء، ومبايعة الأمير عبد الله ليكون إمام الأمة وقائد

البلاد، وقالوا ان الأمير سعود كان بجوار أخيه في مكانة مرموقة. ورغم ان والي الخرج الجديد كان يجتهد للسير على منهج سليم، إلا ان الأمور كانت بها أشياء يسيرة من الضعضة، وحاشا لأحد ان تكون له مناقب وحكمة الأمير سعود بن فيصل (أبو هلا) رحمه الله، في توجيه أمور البلاد والعباد مهما حاول، فقد كانت المصالح القريبة تعلق أحياناً على المصالح العليا للأمة.

بعد شهور جاء للعم زيد زائر من الرياض، وعلم منه أنباء غير سارة، حول تصرفات بعض بطانة الأمير تركي بن عبدالله (ولد الإمام) مع عمه الأمير سعود بن فيصل بن تركي، الذي ما زال الكثير ينتظرون تنصيبه ولي للعهد، لكن تأخر بذريعة ان هناك أحد إخوة الإمام أكبر منه سناً. ثم انتشرت أقاويل عديدة حول الأمر، كلها تثير القلق بخاصة ما يقوم به بعض أخوال الأمير تركي (أل رشيد) في حائل والرياض، وكذلك نسوة منهم في قصر الحكم الجديد الذي بناه الإمام، بحوائط سميكة أشبه بالحصن، شارك في تشييده أسانذة وعمال من حلة الحريق. وبينما الكثير في قلق من تلك الأمور، ورد لكبير أسرة آل خثلان مرسل من سبعان الحائر، ودعا رهط من الجماعة لوليمة تكريمه، وبعدها انفرد الرجل مع بعضهم، وبين ان الأمير سعود بن فيصل، قد خرج من الرياض مع نفر قليل من خواصه، وهو مختفي في جنوبها خوفاً على حياته. ثم صدمهم سماع قوله ان هناك من يتربص لاغتiale، وقد تمكن من بعث حرمة وعياله لأصهاره في جنوب الأحساء، وهو يعول على سبعان العارض لتوفير ملاذ آمن له، ثقة في وفائهم وإخلاصهم وقوة شكيمتهم. تداول آل خثلان الرأي حول ذلك، وهم في دهشة من أنباء تدهور الحال بين الأخوين، بخاصة انهم لم يسمعوا خلال الفترة الماضية، من القرابة في الرياض ما يشير لذلك. اتفق الأكثرية على نصح الأمير ان يسرع بالمغادرة من جوار منفوحة، واقترحوا الابتعاد عن الحائر والخرج والفُرع، حيث بعض أهالي نيجان والحوطة لديهم ضغينة. ويفضل التوجه بعيداً نحو أفلاج ليلي، حيث أقوام من صعبة سبيع مخلصين، شريطة التزام السكنية لإتاحة الفرصة للمصالحة بين الأخوين.

عاد وفد وجهاء سبيع من الرياض مبهتجين، فقد وجدوا الإمام عبدالله بن فيصل محب لعشيرته ومؤيداً لكافة الجهود لتطبيب خاطر أخيه، مؤكداً رفضه لأي محاولة للتضييق عليه من أي شخص قريب أو بعيد، وحاجته لوجوده بجواره للمعاونة في إدارة البلاد. ذهب وفد لمقابلة الأمير سعود بن فيصل، عند الرشود وجرى بحث تسوية الخلاف مع أخيه، وكان متفهم ولا يرغب في المنازعة، لكن في اليوم التالي أوعز له بعض العجمان بعدم جدوى ذلك حيث سيقتلونه. وإن الأسلم هو تجهيز جمهرة مسلحة، تتوجه للرياض وتستبعد الإمام عبدالله الضعيف، الواقع تحت تسلط صهره طلال الرشيد، ومبايعته ليكون هو إمام الأمة، فهو الأجدر بتولي الحكم بدلا من أخيه. رفض أهل الافلاج المشاركة في ذلك، حيث أنهم بايعوا عبدالله وليس هناك ما يستوجب نقض البيعة، كما ان الأمير سعود نفسه بايع أخاه غير مكره، واشعال فتنة في البلاد

أمر يخالف الشرع وله عواقب وخيمة. لذا غادر ليلى غاضباً وتوجه غرباً نحو ربيع، وبعد فترة آلت الأمور نحو حب السكينة عند الدواسر، فامتلت نفس الأمير سعود بالحنق والضيق، وتغيرت طباعه الطيبة وصار في سخط. جاء للحريق أحد سبعان الحوطة، وهم أقلية ليست لهم منزلة تميم أو بني زيد، وبين للعم ان سعود أرسل لهم يطلب الدعم لحركته، لكن البلدة لا تخرج عن رأي ابن عتيق، الفقيه العالم الذي أخذ العلم في الرياض، وأرسل بعض قرابته للحجاز ومصر والهند، للتزود بالمعارف وفهم الشريعة، وقد عين الملك عبدالعزيز بعد نصف قرن أحدهم مفتي للبلاد، لما تميزوا به من عمق الفهم وسعة الإدراك وطيب التعبير. ورغم توصية ابن عتيق بنبذ العنف واحترام العهود، وحل المشاكل بالتفاهم الأسري العقلاني، ورغم وجود بعض ذرية الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب الناصحين، إلا ان بعض أراذل الحوطة قرروا اذكاء الفتنة، بالمشاركة في صب الزيت على النار، بغية الحصول على مكاسب مالية رخيصة. وبعد ذلك انبرى أشباههم في الحريق بمثل ذلك، غير عابئين بما تجره الأحداث من خسائر جمة على البلاد والعباد، ولما وصلوا للدام لم يجدوا الأمير سعود، فقد توجه نحو تثليث في طريقه إلى أبها، حيث التقى مع رهط من آل شامر، جماعة اصهاره العجمان وكلهم من يام الهمدانية. كان لقائه مع آل مرعي بهيجاً، فهم من داعمي إمارة ابن سعود في الدرعية، ثم ذرية ابنه عبدالله بعد دمارها، وكان أسلافهم من بني أمية الذين فروا من بطش السفاح العباسي، في القرن الثاني قد سكنوا جبال السراة ثم تولوا إمارتها. وقد تمكنوا من تهدئة خاطر الأمير سعود، بل وكتبوا صلح بينه وأخيه الإمام عبدالله، يقضي ان يعود سعود ليشيد له قصر لائق في صياح، ويتولى مساعدة أخيه في إدارة شؤون البلاد. وبخاصة جنوب اليمامة "حصن آل سعود" منذ القدم، ويمنح المقررات المالية الشهرية والسنوية الكافية، ويكون لقبه "عريف البلاد" وهو مسمى راقى حيث "العُرف" هو أعلى الرأس، رمز الشموخ والمعرفة والمعروف والفضل. وقد وافق الإمام عبدالله على ذلك، وأن تضمن قبائل نجد العمل بتلك التسوية وعدم نقضها، لكن لأمر ما وبتحريض من البعض، طلب الأمير الجليل العريف سعود بن فيصل، ان يضاف نص بجعله ولي للعهد، لكن الإمام طلب تأجيل ذلك حيث من المبكر الحديث عنه، ووجوب تسوية الأمر مع بقية أبناء الإمام فيصل بن تركي.

تسارعت الأحداث بعد ذلك، وفي الشهر التالي جاء للحريق رجال من العجمان (يام ايضا) يستحثون الناس للانخراط في حملة مسلحة، سيقوم الأمير سعود بقيادتها للتوجه من الجنوب للرياض، لتنصيبه إمام على البلاد وعزل أخيه عبدالله. كان معهم كثير من الريالات النمساوية (فرانسة) الثمينة، وأسلحة حديثة ذات رماية بعيدة، مع وعود بكثير من الغنائم والجوائز لمن يقبل الانضمام معهم في تلك الحملة، وترويح أقوال عن عدالة موقف الأمير سعود ضد أخيه. وفي نفس الوقت كان في الحلة أناس يستضيفون رجال من الخوالة سكان نعجان، يقومون بحملة مشابهة ويطلبون

متطوعين، للدفاع عن الرياض، ضد البغاة الذين يريدون نقض البيعة للإمام عبدالله، التي أجمع عليها كافة أهل البلاد بما فيهم الأمير سعود نفسه، الذي يريد الان خيانة العهد الذي أقر به لأخيه الأكبر، ويسبب فتنة وسفك دماء نهى الله عنها ويأبأها الشرفاء. تباينت الآراء حول الأمر بين من يمدحون أداء الأمير سعود، في جنوب العارض خلال السنوات الماضية، ووجوب دعمه لكي ينقل حسن الأداء لبقية أرجاء الديار السعودية، بغض النظر عما إذا كان أصغر سناً أو أقل خبرة من أخيه. وآخرون يرون ان نقض البيعة أمر مخالف لشريعة الله، والأمير سعود أول من بايع أخاه فماذا يبرر هذا العمل؟ كما ان الإمام فيصل لم يوكل ولاية العهد لأحد إخوته، بل لأكبر أبنائه الذي عاضده لأكثر من ثلاثين سنة، اكتسب خلالها خبرة عميقة في طرق إدارة الحكم برزانة وإدراك. أما العم زيد فقال إننا نرهننا سلاحنا وأسننتنا وأقلامنا، عن الخوض في الفتن التي حدثت بين الإمام فيصل وقرابته وعلينا الآن مثل ذلك، خاصة ان النزاع الحالي ليس بين أبناء عمومة بل بين أخوين. لذا فهو يحث أهله والصالحين في بلدته لتحاشي الدخول في ذلك النزاع، وبذل مزيد من الجهد لمصالحة الطرفين، فلا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس.

لم يمضي شهر واحد إلا وورد للحريق نباء فرعوا فيه للتكذيب، فقد قيل ان الأمير سعود بن فيصل قد غرر به البعض، وذهب إلى نجران (قاعدة يام) وطلب معاونة السيد المكرمي ليحارب معه. قد ينسى البعض الإساءة ويصفحوا عن الباغي، لكن سبعان العارض لن ينسوا قط جرائم المكرمية ضدهم، خلال أكثر من مائة سنة كان أشدها مذبحه الحائر، حيث حاصرها "هبة الله" ولما تمكن من النفاذ للبلدة بطش بقسوة متناهية بالسكان العزل، وسفك جنوده كثير من دماء المستضعفين، وهتكوا الأعراس ودمروا الأملاك وسرقوا الأموال. ثم استاقوا البقية أسرى مهانين مكبلين كالدواب، حتى قرب الدرعية (غذوانة) وجراحهم تنزف وملابسهم تمزقت، يعانون الجوع والخوف والامتهان. واستغرب الجميع كيف يقبل الأمير سعود بن فيصل، التحالف مع نسل تلك الشرذمة الفاسدة، التي أقبلت نحو الدرعية لتدميرها، بينما مؤسس إمارتها جده الأعلى الإمام محمد بن سعود، يرقد على فراش المرض يحتضر. شعر العم زيد بصعوبة اقناع قرابته من السبعان، بجدوى البقاء على الحياد في ظل وجود المكرمية الأشرار، يدعمون أحد الأخوين ضد الآخر، مما يتيح لهم الفرصة لمزيد من البطش القديم ضد حفدة ضحاياهم السابقين. وذكر له البعض أنهم سيتجهون للقتال ضد المكرمية، وليس ضد أحد أبناء الإمام فيصل، بل لمنع تكرار العدوان عليهم، كما سبق ان وقع ضد أجدادهم. دخل السرور نفوس جميع السبعان في الحائر والدم والحريق وليلى، لما خرجت من الرياض حشود كثيفة مسلحة، أرسلها الإمام عبدالله بقيادته أخيه محمد، لنتصدي لسعود والمكرمية قبل دخولهم نجد. حيث التقى الجمعان في المعتلا (لدام وادي الدواسر) وحلت هزيمة منكرة بالبغاة، فقد قتل اثنان من أبناء المكرمي وشردت فلولهم جنوباً نحو نجران، أما الأمير سعود فقد توجه مع أصهاره شرقاً، نحو

بيرين (جنوب الأحساء) حيث بقي هناك يعالج جراحه الغائرة. وأبين لكم يا أحبتي الذين سطرت لهم هذه السيرة، ليستخلصوا منها العبر وتبين لهم بعض حوادث الماضي الأليمة، ان المكرمية آنذاك ليسوا مثل حفتهم المعاصرين، وقد بينا ما يكفي في الفصول السابقة، عن كونهم احدى الفرق الباطنية، التي لا يظهر حقيقة القصد من عملها ومشاعرها، مثل الإسماعيلية والقرامطة والحشاشين والدروز. وهم وإن كانوا لا يسبون الخلفاء الراشدين وأمهات المؤمنين، ولا يطعنون في كتاب الله ولا يقدسون بعض نسل السيدة فاطمة الزهراء، إلا أنهم يشبهون الروافض في بعض تصرفاتهم. ولقد تغيرت أحوالهم كثيراً عام 1353هـ بعد أن تخلى إمام اليمن يحي عنهم، ودخلوا ضمن مواطني الدولة السعودية مع الملك عبدالعزيز. ان تخلصهم من ربق الامتهان والاستعباد، تحت سيطرة أمراء المتوكلية، جعلت الكثير من عقلائهم يعيدون النظر في بعض الطقوس السرية. كما تحسنت أعمالهم وأقوالهم، مع بقاء شيء من المخالفات والعنف لدى بعضهم، والله وحده الهادي إلى سواء السبيل.

شهدت السنوات الثلاث التالية تغيرات كثيرة على شرق البلاد، لكن تجارة آل خثلان مع موانئ الشرق والغوص لصيد محار اللؤلؤ استمرت بحذر، لتلافي الاضطرابات بين بعض الأطراف. لقد انتهز حكام مسقط ونزوى التوتر في نجد، فغزوا البريمي وضموه للحكم البوسعيدي، أما الانجليز أهل الدهاء والمكر، فقد زادت أطماعهم في شرق جزيرة العرب، بخاصة لما تمكنوا من الاستيلاء على ثلث ملكية التربة المالحة المصرية. التي سموها قناة السويس لتربط البحرين المتوسط والأحمر، بعد ان فشلت محاولة فرنسا شق القناة بعمال السخرة المصريين، نظراً لسرعة انهيار الرمال وشح الماء والطعام، ومرض البشر والجمال والحمير. حيث احضروا سفن وقطارات تعمل بالفحم الصخري، وتقوم برفع كميات هائلة من الرمال بعيداً عن المجرى المائي وتمنع انسداده، وكانت المحركات البخارية التي تعمل بضغط الماء الساخن، اختراع انجليزي أحدث ثورة في عالم الصناعة والنقل. وأدت تلك القناة لتقصير مسافة السفر بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند وأستراليا، فزادت شهية ملكتهم للسيطرة على جنوب وشرق جزيرة العرب، وأخذوا يبتئون الفتن بين القبائل ليضمنوا عدم التوافق ضدهم، بل وسموا المنطقة الساحل المتصالح. ورغم الفتنة الدموية بين أبناء الإمام فيصل، إلا ان الطرق سالكة بين وسط وشرق نجد، رغم بعض أعمال اللصوص العشوائية، لذلك كان العم زيد يسلك طريق العرمة شمال الدهناء، للوصول للساحل عبر ميناء القطيف، حيث يوجد تجار من زكور سبيع متعاونين مع البحارنة.

بعد ان فقد الأمير سعود بن فيصل أحد أقوى مناصريه (تركي السديري) غيلة شعر بالضيق والتوتر، رغم أنه يعيش في سعة وأمن بين أخواله (الخوالد) وأحوال بعض أبنائه (العجمان) شرقاً. ولأمر ما لا يعرفه العم زيد، أوضح بعض المقربين من أبو هلا له أن يطلب العون من الانجليز، الذين زادت شهيتهم لمزيد من السلطة في نجد، خاصة بعد ان أعرض الإمام عبدالله عن التعاون معهم. ورغم انهم كثرروا عن أنيابهم

وظهرت أطماعهم في بلاد التوحيد، إلا أنهم آثروا التستر خلف الوكلاء، بخاصة في تلك الحرب القذرة بين "الإخوة الأعداء" وأظهر أمراء منامة البحرين الدعم لسعود، موالاة للعثمانية والانجليز! فتوجه مع رakan بن حثلين في حشد مدعم بالمال والعتاد، نحو ميناء الأحساء الرئيس (العقير) والمناطق المجاورة، وأخذ يناوش قوات الإمام عبدالله، الذي بدوره أرسل أخاه لصدهم. التقت الجموع غرب بحرين القطيف، وحلت الهزيمة بجنود الرياض وأسر سعود أخاه محمد. التقى العم زيد بعد الحج مع نفر من بادية سبيع في الحائر، وعاتبهم لانقلاب ولائهم قبل المنازلة، لكنهم بينوا له أنهم كانوا موالين مع أبو هلا كعادة عشيرتهم، لكن اختفائه مدة طويلة اضطرهم لقبول الانخراط مع الإمام، لكن لما أساء لهم الأمير محمد بن فيصل لم يرضوا البقاء معه.

أدت تلك الهزيمة الكاسحة لدخول الهلع في قلب الإمام عبدالله، فجمع الحريم والمال والعيال وخرج من العاصمة، ولم يقبل سبعان عنيزة الدخول في تلك المشاجرة الكريهة، فتوجه نحو عتبان روق في بوادي جنوب القصيم. ولما دخل الأمير سعود الرياض رفضت الغالبية مبايعته، ووجدهم كارهين له وما زالوا على بيعتهم لأخيه عبدالله، كما ان عمهما عبدالله بن تركي كان يتربص خارج الرياض. بينما الإمام غرباً يحشد الناس من قحطان (قرملة) وعتبان (ربيعان) ليعود للعاصمة، فخاف سعود على نفسه وتوجه لمقره القديم (سيح الدلم) حيث توافد نحوه محبيه، ومنهم جمهرة من أهل الحريق وعدد قليل من آل ختلان، الذين لم يخافوا الخوض في اقتتال الإخوة. أخبروا العم زيد ان أبو هلا قد غيرته السنون الماضية، وبهتت تلك الابتسامة المشرقة، وعيناه تتقلبان في ريبة وتوجس ممن حوله، وبدا ان لديه نقص في المؤونة والمال، وبجواره أخاه الأصغر عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله، الذي لم يسمعوا عنه من قبل، وهو والد الملك عبد العزيز كما سنبين لاحقاً. كما قال بعضهم ان والدة عبد الرحمن ذاك ابنة الأمير مشاري، الذي قتل خاله الإمام تركي بن عبدالله، لكنني سمعت والدي يحدث من في مجلسه (أواخر خمسينات القرن العشرين) ان عمه زيد كان غير متأكد من تلك الرواية، وربما ان والدة عبدالرحمن من آل حميد الخوالد.

&&& تلك الحقبة الكريهة حيث يتقاتل الإخوة على المناصب، كانت زمن انتعاش التجارة رغم مرور سنتين من الجذب، أصابت الزرع والضرع في الحريق، فقد أحكم حلفاء الانجليز على الساحل الشرقي السيطرة على الأمن، من مسقط جنوباً حتى كوت البصرة شمالاً بمكوس قليلة. ورغم الوجود العثماني في جنوب العراق، إلا انه لم يكن بقوة نيران الانجليز ودهائهم، الذين شيّدوا مرافق كثيرة في عدن، قرب مدخل البحر الأحمر (القلزم سابقاً) الجنوبي، بينما يسيطرون على المدخل الشمالي في السويس. روج البعض للعم ان هناك بضاعة جيدة وثمانية، تأتي لعدن من شرق أفريقيا بأسعار منافسة، ويمكن للعقيلات ترويجها في الشام ومنها لتركيا وأوروبا، لذا شد الرحال مع قافلة متجهة إلى هناك. الطريق وعرة وتمر ببلاد المكرمية ثم الروافض والزيود، ولم يصل إلى زنجبار قرب عدن إلا بشق النفس، حيث وجد رجال أباضية من مسقط،

يجلبون سلع نادرة من جلود وأنياب الحيوانات، وبعض الثمار والزهور مثل قرن الفل والفانيل، القليل منها يطلبه أهل العارض، ولم يتيقن من إمكانية تصريفها عن طريق العقيلات. توجه جنوب غرب على الساحل نحو عدن، التي استحلها الانجليز عند سقوط الدرعية، وفي أقل من خمسين سنة شيّدوا فرضة على ساحل البحر، تفوق ما رآه على الساحل الشرقي لبلاده أو في الحجاز، وتضاهي موانئ مصر حيث مخازن للبضائع جيدة النظام. علم الجد عن وجود بعض العمانية هناك، وهم أسود البحر المحيط، رغم ان سفنهم خشبية ذات أشرعة هوائية على النمط القديم، إلا أنها أقل تعرضاً للغرق من السفن البخارية (بواخر) التي إذا تعطلت رجل النار وتوقفت الرفاسات، فإنها قد تتقلب على جنبها عند هيجان الموج وشدة الرياح. والعمانية والحضارم أسسوا تجارة مع شرق أفريقيا، حيث جزيرة زنجبار المسلمة تواجه ساحل تنجانيقا الكفار، وتجلب اليها سلع من داخل بلادهم ومن مدغشقر. كما ان هناك سوق لبيع الزنج العبيد، الذين تحارب بريطانيا التجارة فيهم، رغم ان ليس كلهم مخطوفين، بل أكثرهم من رهائن حروب الزنج، أو يندرهم أهلهم لخدمة بيوت الآلهة، وغيرهم يتخلصون منهم بسبب الجوع. والتقى العم هناك مع تاجر عراقي (جلاسي) عليه ملامح نوبية، أفاده ان أحد قرابته يعمل في النخاسة، فقبض عليه الانجليز وشنقوه، وحذرهم من تعاطي تجارة العبيد في عدن. في بلاد الحضارم وجد أصناف طيبة من القهوة، ومشغولات فضية و سلع أخرى، وقرر بعد شهور العودة لليمامة، يصطحب ثمانية من الخدم كلهم في نحو الخامسة عشر، معهم فتاتين ترافقان إخوتهما. في بلاد الدواسر سوق نخاسة كبير، لكنه لا يضاهي ما في بيشة ومسقط، وباع أحد الفتية الذي لاحظ هزاله، ورفضت أخته ان تفارقه فتركها معه بثمن بخس، أما الفتاة الأخرى فقد استحوذ عليها أحد رفاق القافلة ليتسرى بها. لكن لما أقبلوا على الأفلاج قال القحطاني أنه يريد استرداد دراهمه، بلا سبب موجب لذلك فرفض العم، وجرت بينهما مقابلة حادة، فذهب الرجل إلى ليلى وعاد ومعه صديق سبيعي، عرضا عليه استعادة ثلثي الدراهم لكنه رفض، حيث الرجل فضها وأتلفها. أشار له الغلام أخ الجارية واوصاه ان يقبل، فهي ستعمل خادمة عنده، وهو لديه المام بالنجارة وسيعمل قن عند الصناع، فهو وأخته استحبوا طباعه ولا يريدون فراقه.

لما وصل العم زيد بن عبدالله للمفجر، تبينت له تبعات مأساة تنازع الإخوة على الإمارة، فقد ثارت فتن في حائل والحوطة والدم والحائر، وشبت معارك بين القرابة على مناصب تافهة في قرى صغيرة. لكن أسوأها ما جرى في الحريق، من مقتلة في المسجد بين قرابة متنافسين، أدت لمعصية الله ولقطع الأرحام، في مشابهة لما جرى في القرن السابق في نعمان من قتل الأخوال، ثم التعدي على آل عثمان ونفيهم من البلدة فأصابه الغم من ذلك. لكن حائل لم تكن بلدة صغيرة، وقد قام حاكمها محمد بن رشيد بنذبح خمسة من أبناء أخيه طلال، في جريمة بشعة على النمط العراقي الكريه. ثم تمكن بدهائه وقسوته من بسط نفوذه على وسط جزيرة العرب، فقد تمهدت

الأراضي له ليحكمها حتى لقبوه "المهاد" والكبير. كما علم أنه أثناء غيابه أرسل الإمام عبد الله عمه وأخاه، للدلم للقضاء على الأمير سعود بن فيصل (أبو هلا - العريف) لكنهما انهزما، وقُتل العم وفر محمد للرياض، حيث وقف أهل الخرج ببسالة مع سعود، الذي هرب مسرعاً للرياض. وبيع له كثير من أهلها وبطش ببعض وصادر أموال التجار، وأتلف ممتلكات آخرين ممن تلاكأوا في مبايعته ليكون إمام الديار السعودية. لم يكد العم يستريح من وعاء السفر، إلا وجاء مندوب من الحائر، يحث على عدم الاستجابة لرغبات عتبية وقحطان في صد هجوم الإمام سعود عليهم، الذي خرج من الرياض في حشد غفير للتنكيل بهم، لمساندتهم أخاه الإمام عبدالله ضده. حيث ان سبعان عنيزة (بني ثور) على الحياض ويريدون العشيرة معهم، وعبدالله ليس بجوارهم بل في (الكهفة) جنوب حائل، وذهب آل قرملة غرباً وبقي الربيعان مع قومه وعيالهم وحريمهم، عند بئر في وادي طلال جنوب غرب القصيم بعالية نجد. لما وصلهم الإمام سعود بجنوده، كانوا متأهبين للمنازلة بقناصتهم (بواردية) وبنادق ذات مرمى بعيد، وأصيب أبو هلا بجراح ثخينة فانسحب شرقاً للعلاج، وجاء نباء وفاته بعد شهور.

عم الغم والحزن كافة أرجاء جنوب العارض، لوفاة زعيمهم لسنين طويلة الإمام العريف صاحب المعروف والإحسان، وظن البعض ان تلك هي خاتمة الفتنة المشتعلة بين القرابة منذ عشر سنين، وقد سفكت فيها كثير من الدماء وقطعت الأرحام، بما يدمي القلوب ويكدر الخواطر. لكن أبناء الإمام سعود وهم شباب متحمسون، أقنعوا عمهم الأمير عبد الرحمن ان يتولى زعامة الديار النجدية، فدخلوا الرياض التي لم يكن أعيانها راضون بذلك ولم يبيع أكثرهم، وبقيت أمور البلاد مضطربة. لكن تجارة العم زيد مع الشرق استمرت، حيث ان والي البصرة انتهاز فرصة الاقتتال بين أبناء الإمام فيصل، ودبر مع الانجليز في المنامة ارسال كتبية قوية لاحتلال عقير الأحساء، بدعوى تأمين سبل الحج وقمع شطار الطرق (جامعوا الباجة والمكوس) واللصوص. لكن أمرهم لم يستمر إلا شهور قليلة، حيث غضب الأمير عبد الرحمن من أبناء أخيه لما قتلوا أحد القرابة، وبطبعه الهادئ وشغفه بالسلام والبعد عن الفتن، أرسل لأكبر اخوته الإمام عبدالله ليعود للرياض ويتولى الحكم. فعادت السكينة للعارض رغم ما يقوم به أبناء الإمام سعود من حركات في شرق الدلم، حيث فرضوا إتوات على القوافل المتجهة للبحر، ويستثنى من ذلك المخلصين لهم في المنطقة، حيث يمنحهم تعريف بتبعيتهم له واعفائهم من ثلاثة أخماس المفروض على السلع الواردة.

استمر الهدوء بضع سنين حتى استهلال القرن (14هـ) كان الناس في وادي الفرع ينعمون بالسكينة، وحتى في سنوات القحط كانت تجارتهم بين عقيلات الشمال والسواحل، تجلب الربح الوفير والغذاء والكساء والدواء والسلاح. ويعامل أبناء الإمام العريف سكان الفرع وبرك والسيح بكرم وتقدير، وتزوج بعضهم من بنات بعض شيوخ القبائل العاشقة للتقرب من ذوي المناصب، وزادت لديهم الأموال وتكاثر

الرجال وتوفر العتاد الحديث، بعد حروب أمريكا (المريكان) والانجليز. سوغ ابليس وشياطين الإنس لهم جمع جنودهم، والتوجه للرياض للقضاء على أعمامهم هناك، بخاصة الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي، وعلى حين غرة تم لهم ذلك وسجنوه. فهب لنجدته ابن رشيد فجاء مسرعاً بعساكره العثمانية، وأخرج زوج أخته من الحبس وفر أبناء الإمام سعود لعاصمتهم في الخرج، وشكر الأمير تركي بن عبدالله خاله على ذلك الصنيع المبرور. لكن ابن رشيد له تطلعات عميقة، فقد طلب من الإمام واخوته ان يصحبوه للمضيعة في الجبلين، وعين أحد أصهاره (السبهان) حاكم على الرياض! سمعت في مجلس والدي ان ذلك اليوم هو بداية السيطرة التامة لابن رشيد على وسط جزيرة العرب، مع اعتبار أحداث العشر سنين الماضية حلقات في السلسلة. لقد أرسل سالم لجنوب العارض فرقة بقيادة ابن رُخيص، للتعامل مع أبناء الإمام المعروف سعود بن فيصل، فقبض على عبدالعزيز وأرسله سجيناً لحائل، وذبح البقية في الدلم كما سمعت من أبي. لكن عمتي (منيرة) قصت علي خلاف ذلك رحمها الله، وقد كانت عارفة حافظة عن والدتها الوقائع، وهو ان بعض خونة العجمان موالين للرشيد، جاءوا للحريق ليلا يرأسهم خلف الشمري. ودقوا باب القوع (الفناء المنزوي) لمنزل الأمير عبدالله ابن الإمام سعود بن فيصل، المتزوج من أخت محماس الدحملي الأمير الهزاني الصمصام، مدعين أنهم يحملون رسالة عاجلة من أخيه محمد، فأمروا بترك السلاح عند المدخل وأجلسوهم في صفة (حجيرة على اليمين) ولما اطمأن لهم الأمير، أمر الخدم بإحضار القهوة وتجهيز ذبيحة، ولا يدخل عليهم أحد لثلاث ساعات. ثم انبرى أربعتهم للإجهاز عليه بخناجر صغيرة مخبأة في طيات ثيابهم، وغادروا في صمت بعيداً عن البلدة. لكن والدي شكك في ذلك قليلاً، حيث ان والدة عمتي (خالته نورة) كانت آنذاك في مقتبل العمر، وشاركت في عزاء أرملة الأمير، وهي ابنة عم والدتها اما جدتي (شيخة) فقد كانت نفساء حيث ولد أبي قبل أسابيع من تلك الحادثة الأليمة، رحم الله الجميع وغفر لنا ولهم وجمعنا في فردوسه مع الصالحين.

قبل ان أسرد عليكم أيها الأحبة ما مر على العم زيد من أحداث تلك الحقبة، أستأذنكم في التوقف عند أمرين، أولهما ابن رُخيص وثانيهما سعود ابن رشيد للسلطة في سنين قليلة. لقد سمعت في مجلس أبي من يقول ان ابن رُخيص هذا (أو غيره) كان يرأس حملة حج من حائل إلى مكة، في نهاية القرن 13 هـ ومرض أحدهم بالجدري، وخاف الجميع من الوباء القاتل، فقرر تركه ومعه قريبه وطعام ودواء وركائب، فإذا طاب عادوا من غرب القصيم لبلدتهم، وإذا مات يدفنه في محله لكن القريب أنشد:-

يا ابن رُخيص كب عنا الزواريب &&&& اعمارنا يا هيه تراها عواري

خوينا ما نصلبه بالمصاليب &&&& ولا يشتكي منا دروب العذاري

ان كان ما قمنا بحق المواجيب &&&& حرام علينا لابسات الخزاري

اختلف الحضور على أفضلية الشيمة مع الخسارة، أو الربح مع العمل الخائب الحكيم! المؤدي للنجاة، أما المكاوية في المجلس فلم يدركوا معاني تلك الأبيات العامية. أما ابن رشيد هذا فهو محمد أصغر أبناء والي حائل، الذي عينه الإمام فيصل بن تركي، بعد حادثة استشهاد والده غدراً في واقعة تحوم حولها شبهات عديدة، عن العلاقة بين سويد بن علي وعبدالله بن رشيد. الذي أظهر الولاء التام لابن سعود، رغم هزات علاقته مع العثمانية خاصة خورشيد، وعند عودة الإمام من مصر (الثانية) أيده وسار معه ضد الثنبيان، لكنه عاد لحائل من منتصف الطريق، واكتفى بأخيه عبيد ليقوم مقامه. وبعد وفاته تولى ولده طلال الحكم، ثم تولى ولده متعب لفترة قصيرة، حيث عاجله أبناء أخيه طلال وقتلوه وتولوا أمارة حائل.

حينذاك بداء يظهر دور الأمير محمد العقبري، وكما بينت في المقدمة أكتفي "بسردي السيرة" وترك "استخلاص العبرة" لكم، لكنني هنا أخالف ذلك وأساهم معكم في استخلاص العبر. بعد وفاة الإمام فيصل وتولي ولده عبدالله الحكم، وبدء خلافه مع أخاه الأصغر سعود، انقض أبناء طلال الرشيد على عمهم واستولوا على الحكم، وقبل الإمام عذرهم الواهي، لكن أصغر أعمامهم محمد (هذا) أدرك ان أبناء أخيه لن يتوانوا عن قتله. لقد نصحه الكثير ان يبقى في الرياض عند أخته (نورة زوجة الإمام) في رغد وبحبوحة، يرافق ولدها الأمير تركي بن عبدالله، في التنزه والرحلات ومجالس الأناج والسمرا! ولو اختار ذلك لكان من العاجزين. لكن الله قيض له عزيمة قوية وعمق تفكير وحسن تدبير و"صفاء الرؤية" فلما عرضوا عليه التصالح مع أبناء أخيه والعودة لحائل، وجدها فرصة ملائمة لبدء مشروعه للوصول لمبتغاه، والنجاة مما يعدونه لاغتياله. كانت خفارة الحج مصدر مهم للريع، ولن يتنازلوا له عنها إلا إذا كانوا يزمعون القضاء عليه، وكان ذلك له إلا انه أكثر نباهة من أولاد أخيه الأشرار، فلم يمكنهم من الانفراد به، فهو يعلم ان "سلامة الرأس هي الأساس" فلم يسكن في أجا أو سلمى، بل انزوى في مقرات بعيدة تارة في سميراء وأخرى في بقعاء وغيرها. ثم انهمك في "تطوير الأعمال" فلم يكتف بما كان في السابق، حيث ينقسم الإيراد إلى ثلث للرياض، وثلث للجبلين والبقية لشيوخ عشائر الطريق. بل لجاء إلى حيلة شيطانية، فقبل بدء موسم الحج يهجم على مناطق العشائر، ويأسر عدد من رجالهم ويصادر بعض حلالهم ويحفظهم، لقاء تعهدهم بعدم تعرض حملاته للهجوم في الذهاب للمدينة أو الإياب، وإذا وفوا به أعاد لهم الرجال والمواشي مع قدر من المال. رفع أجرة الرحلة من النجف على الشيعة، ولا يرسل للرياض وحائل سوى قدر أقل من العوائد، ويوفر للحجاج متطلباتهم في الطريق، ولا يلزمهم بالتسوق من برزان، ويحتفظ بالمكاسب لنفسه فإن "المال يجلب خيرة الرجال" والسلاح. كانت الفتن مستعرة بين القرابة سواء في الرياض أو حائل، مما أتاح له الفرصة ليزداد نفوذه وماله، وبعد سنوات قليلة لما مات عمه عبيد ابن رشيد، المؤيد القوي لأبناء أخيه طلال، ودخل الأمير سعود بن فيصل للرياض، رأى ان "الوقت الملائم" قد أوف،

فانقض على أبناء أخيه وقتلهم قبل ان يقتلوه كما ظن، مدعياً أنهم هجموا عليه وكان رجاله في حالة دفاع عن النفس!

استمرت سيرة محمد ابن رشيد، ترسم صورة واضحة لاستخدام الذكاء للوصول للأغراض والطموحات، فبعد ان ضمن عدم وجود معارضة لتصرفاته، سواء في حائل أو في الرياض، بداء يتطلع لما وراء الجبلين. بعض مشاوريه اقترحوا مد النفوذ شمالاً، حيث بعض عشائر شمر العراقية تعاني التشرذم، حيث السيطرة عليها ستؤدي لزيادة قوة حائل، في شمال ووسط جزيرة العرب. لكن عبقرية المهاد أبت عليه قبول "الحسابات الخاطئة" أساس للقرارات، فهو يعرف ان شمر العراق لها طباع مختلفة عن شمر الجنوب، بخاصة مسألة الإصلاح الديني ونبذ البدع، فمنذ القرن السابق وهم يرفضون التقيد بأسس السنة المطهرة، وكثير منهم لا يتورعون عن الانحراف، وممارسة الشهوات ومعاقرة المنكرات، بل البعض منهم تشيعوا بغرض التحلل من الواجبات الإسلامية، أو للتهرب من الجهاد المشروع. وما دام نصف سكان حائل تبناوا الالتزام السني، فليس من السهل تقبل سيطرتهم على شمر العراق، مع وجود عشائر قوية من الجرباء وزوبع (ثعل) وأسلم والطوالة والصفوق. كما أن الولع بالعثمانية جعلهم في رضا تام بالتصرفات التركية، ويتفاخر بعضهم بخدمة الترك (ياوروية) أو عسكر، ولم يكن من السهل اقناعهم بالانضواء في نمط الحياة الإسلامية الوردية.

وجد ابن رشيد ان التوسع في نفوذه يبدأ نحو الرياض، حيث الإمام عبدالله بن فيصل دخله الوهن واشغله الصراع مع أبناء أخيه، لكن حنكته وعمق تفكيره "وحسن التدبير" منعتة من التهور "والدخول السريع" في مغامرة هوجاء. كما يعرف ان الدرب نحو الرياض، يمر بعدة أقاليم حيث القصيم ثم سدير والوشم والمحمل، وكعادة النبهاء كان الواجب بث الفرقة والتناحر بين الخصوم، حتى تسهل عليه تصفيتهم. ابتداء بقاعدة القصيم المجاورة له جنوباً (عنيزة) ففشلت حيله لنشر الفتنة بين أهلها، ورغم وجود خلافات بين بعضهم إلا ان الجميع سواء من الزامل والجمعي واليحييا والفضل (السبعان) وحتى الخوالد (الجناح) تكاتفوا ضد أطماعه. فتحول لبريدة حيث أطاعه قوم من عنزة (أبا الخيل) ليخالفوا الحكام منذ زمن بعيد، الدريبي وأبو عليان (أولاد علي) فهب من برزان لدعم آل مهنا، وتوجه الإمام عبدالله من الرياض لمساندة العليان، وتلك أول مرة يكشف فيها الرشيد عن سوء نواياه ضد أولياء نعمته (آل سعود) فتنبهه لوجوب تلافي "وصمة العار" وذهب للإمام خاضعاً وراجياً جعل آل مهنا أبا الخيل حكام لبريدة، فهم أجدر بها من غيرهم، ونظراً لضعف حاله وافق على ذلك وعاد للرياض كأنه لا غالب ولا مغلوب. في تلك السنوات كان محمد بن رشيد يوطد علاقته مع العثمانية، ويضمن عدم معارضة حكام سدير والوشم لتوطيد نفوذه، تاركاً المعارض والخرج لزوج أخته وأبناء أخيه. وفي مطلع القرن 14 هـ شعر أبناء الإمام سعود بالقوة، وخافوا من تزايد نفوذ ابن رشيد في سدير. حيث دان دواسر جلال (سويد) وجلاسية عنزة (العسكر) في المجمع بالولاء لابن رشيد، لذا تهادنوا مع عمهم وأفنعوه

بالمسير نحو سدير، لكسر شوكة الموالين لحاكم حائل، وكانت معهم حشود من بادية العارض، أكثرهم من أتباع ابن حميد العتيبي. التقت الجموع بعيداً عن المجموعة (جنوب غرب) في روضة بها شجرة أم العصافير، حيث أعد المهاد "خطط دقيقة" لاستغلال طبوغرافية الأرض لمصلحته و"تشتيت المنافسين" فنزلت بالإمام عبدالله هزيمة كاسحة، أجبرته على الانسحاب للرياض فوصلها مريض مغلوب. لكن ابن رشيد لم يطارده، حيث يعرف ان "انتهاز الفرص" أمر دقيق يرتبط بالنظرة بعيدة المدى، ووجوب "استشراف المستقبل" وفهم امكانية التنبؤ بتصرفات الطرف الآخر وخططه.

خلال الثلاث سنوات اللاحقة كان الناس في وادي الفرع في حبور، لانتعاش التجارة وتأمين دروب الساحل الشرقي، التي يسيطر عليها أعوان أبناء الإمام سعود بن فيصل، كما ان طريق الشمال عبر الوشم والقصيم سالكة، تحت تدبير رجال ابن رشيد. وعلى حين غرة وبتحريض من طرف ما، جمع أبناء العريف حشودهم المسلحة، وباغتوا عمهم عبدالله في قصره بالرياض وسجنوه، وأعلنوا توليهم شؤون الحكم في العارض، بما في ذلك المحمل وشقراء حتى الأفلاج والسليل جنوباً. كانت تلك الفرصة السانحة لابن رشيد ليثبت للناس أنه حامي الشرعية، فجاء بجنوده لإنقاذ إمام المسلمين من قرابته، الذين انسحبوا للخارج يطاردهم السبهان ويقتلهم. ثم اصطحب معه الإمام عبدالله وأخيه عبدالرحمن للإقامة الجبرية في الجبلين، وأخذ معه ليف من أعيان نجد منهم بعض قادة المحاربين والتجار، وأطفال من حفدة الإمام سعود بن فيصل، وبعض الفقهاء من ذرية الإمام محمد بن عبدالوهاب. وهكذا بينت وجهة نظري كمحرر لهذه السيرة، عن كيف تمكن محمد بن عبدالله بن علي الرشيد، بعبقريته الشريفة خلال خمس عشرة سنة، من السيطرة على كل نجد بمن فيها من ذرية الإمام فيصل بن تركي، الذي كان هو واخوته ووالده خدم لديه. وأود ان ألفت انتباه الأجابة أنه لتسهيل استخلاص العبرة، وضعت نبرتين على تصرفاته كما في الفقرات أعلاه، مثل :- صفاء الرؤية - الوقت الملائم - حسابات خاطئة - حُسن التدبير - الدخول السريع - خطط دقيقة - تشتيت المنافسين -- انتهاز الفرص. وأسأله تعالى ان يوفقني واياكم وصالح المسلمين، ويهبنا ألباب نستخلص بها العبر من قصص أعمال الآخرين.

نعود الآن لما سرده العم زيد لابن أخيه (والدي) رحمهما الله، فبعد ثلاث سنوات كان الإمام عبدالله بن فيصل قد عاد للرياض، فتوفي وخلفه أصغر اخوته (عبدالرحمن) إمام لها، الذي تسرع وسجن السبهان وتولى كافة شؤون العاصمة، مخطئ الحساب ان الرشيد في حائل مشغول بالعراق. لكنه ترك ذلك وهول مسرعاً لتدارك الأمر، وتصادف ان العم زيد كان في الرياض، لبعض أغراضه ولتعزية الإمام في أحد أولاده، وجاء ابن رشيد بجيشه من حائل، وبقي خارج السور في الساحة الشمالية (الظهيرة) وقيل إنه استفسر عما إذا كان سالم قد أعدم، ولما علم انه محبوس زوى شفتيه وقطب جبينه في تهكم. طلب ان يأتي إليه الإمام، فقالوا انه خارج الرياض

متواري عن الأنظار، لكن وفد من أعيان البلدة يرأسهم الشيخ عبدالله بن عبداللطيف، ومعه ثلة من الفقهاء والتجار ذهبوا إليه، يصحبهم شاب يبدو دون العشرين، لكنه طويل القامة ذو سمات تبعث على الإعجاب. كان العم على مبعدة ولم يسمع حديثهم، كما لم يتحقق من ملامح الرشيد، الذي لوى طرف يشمكه الهندي (التركي) على أنفه لدفع الغبار المتصاعد من حركة الخيالة خلفه في الشعيب. بعد المغرب التقى العم مع رجال من حلة الحريق، ومعهم نسيبهم العامل في خدمة الشيوخ بالرياض، وحدثهم عن الحوار الجاف مع المهاد، وتوعده لكل من يشارك في التعدي على رجاله، وأنذر الفقهاء والتجار بعقوبات غليظة لمن يحرص المخالفين له، أو يقدم لهم دراهم أو سلاح وذخيرة. كما بين لهم المشاركين في الملتقى، وأن الشاب معهم هو عبدالعزيز الذي غدا أكبر أولاد الإمام بعد وفاة أخيه، وله أخ أصغر منه بشهور (أمه أخرى) هو محمد لكنه بقي مع والده في الجزعة. وبعد أيام علم العم ان ابن رشيد تقابل مع الإمام عبدالرحمن في القصر، ولم يكن الحديث جاف لكنه غير ودي، فقد وبخ الإمام لتعديه على رجاله، بسبب شكوك واهية في غير محلها. ثم أمره بالتوجه للخروج (السيح) ليتولى امارتها ويحفظ الأمن، ويوجه عمال لجمع الخراج (الزكاة) يرسل ثلاثة أخماسه له، ويحتفظ لنفسه وعشيرته بالباقي. أما أخاه الأكبر (محمد) فسيكون إمام الرياض، ولن يبقى السبهان فيها فقد أوكل شؤون الأمن لأحد مماليكه، ولما رتب الأوضاع عاد لأجا وهو متغيظ.

في السنة التالية جرى تحالف غريب في القصيم، حيث تضجرت عنيزة وبريدة من غطرسة الرشيد، وأرسلوا للإمام عبدالرحمن لينضم معهم، فوافق وأعد للذهاب اليهم فيما سمعت في مجلس والذي أنه تصرف غير موفق. لكنه رد عليهم ان الإمام كان أكثر تضجراً من تصرفات أهل حائل في الخرج، وأبت نفسه العزيزة الرضوخ لمن كان هو وأبيه مجرد خدم مؤتجرين عند والده، وكان يرى الموت شهيداً أكرم من تلك المعيشة. لذا غادر الدلم نحو القرعاء حيث تجمعت قوات السليم والمهنا، لكن المهاد هرول مسرعاً للقصيم، واستدرجهم لأرض رملية (المليدا) وأنزل بهم هزيمة ساحقة، فسارع الإمام بالعودة للخروج من الخفس، حيث دافع عنه العجمان وكافة الأهالي. وبقي ابن رشيد في القصيم يتصيد مناوئيه، الذين فر بعضهم من القصيم نحو الإمام في الدلم، الذي تزايدت قواته بوصول أخ المهنا مع حشد مسلح من القصمان، وتوجهوا للرياض حيث زادت قوتهم ومالهم وعتادهم. إلا ان خبرهم وصل لابن رشيد في القصيم، فلم يتهاون ولم يسوف فبادر مسرعاً للجنوب، والتقت الفئتان في المحمل قرب (حريملاء) وكالعادة تفوق صاحب العبقرية الفذة، على المخلص الأمين فانسحب الإمام عبدالرحمن، وأرسل خدمه ليصحبوا حريمه وعياله شرقاً، حيث سكنوا الفيافي غرب القطيف، على رأسهم ابنه الشاب عبدالعزيز (الملك لاحقاً) وأخوه محمد. أما الإمام فتوجه إلى جنوب الأحساء (بييرين) عند المريية، حيث سارع حكام قطر والمنامة باستضافة بعض النساء والأطفال، وحتى ضابط الأحساء التركي قرر مخصص مالي

الحكم بأصول الشريعة الإسلامية، التي لا يعرفها أحد سواهم وقاتلوا بهمة لرفعتهما. فقال أحد اخوة الملك يا أبا الكلاب (لقب فخري وليس سبة) ان الحكم لله ثم لعبدالعزیز، وليس لكائن من كان أي نصيب فيه. فلما رأى عدم جدوى المفاهمة معهم، جاءهم الجواب الحاسم "وعدكم السبلة بعد رمضان" والبقية مسجلة في كتب التاريخ الرسمي أو الشعبي. فله در عبد العزيز بيداء العلاج بالدرهم والوظائف والمناصب، فإذا لم تجدي فباللسان ثم بالشوحطة (العصا) ثم بالسوط، ولا يركن للسيف (السلاح) إلا في آخر المطاف. وقديما قال ملك الشعراء: —

وضع الندى في موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف في موضع الندى

وما قتل الاحرار كالعفو عنهم * ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا

إذا أنت اكرمت الكريم ملكته* وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

إن من الأمور الصادمة في زمننا الحالي، هو ما يصرح به نفر غير قليل من آل رشيد عن حقهم الكامل في العودة لحكم وسط جزيرة العرب، ولا أعلم شخصياً ان أحد منهم قد حكمها منفرداً ليوم أو حتى ساعة واحدة. وهم يعلمون ان كبارهم "عبدالله" وأخوه الأصغر "عبيدالله" ادخلهم في خدمة الإمام تركي، ابن عمهما "جبر" الذي كان محاسب مالي عند الإمام سعود "أبوشوارب". وتحوم الشبهة حول تحريض مشاري لقتل خاله! ثم تولى الإمام فيصل الحكم ومنح ثقته لآل رشيد، الذين عملوا في خدمته بإخلاص ظاهري، مع ضغائن ومكر خفي يعرفه أهل الدراية بطباع العمال والخدم. لكن فيصل وولده عبدالله أبقوهم وذريتهما في إمارة حائل، لسنين طوال كانوا يجمعون فيها ثروة طائلة من نقل الحجاج من النجف للمدينة، حتى جاء "المهاد العقيم" وانتهز الفرصة لتأجيج الخلاف بين بعض أبناء الإمام، واعمل القتل والتتكيل في آل سعود أثناء غفلة من الزمن. لكنه رغم سطوته لم يجرؤ ان يدعي حكم وسط جزيرة العرب، ووثائق إسطنبول تبين انه طلب من الباب العالي، فرمان بأن يكون محمد بن فيصل إمام البلاد. وبعد موته وتولي ابن أخيه (الجنازة) عمالة حائل، ثار ضده الإمام عبدالرحمن وابن صباح وقاتلوه، ثم اجهز عليه الملك عبد العزيز في روضة مهنا، وعاد لقومه على فرسه جنازة كما سمي نفسه.

لقد تعرفت عملياً (المحرر) على بعض من آل رشيد، وجاورت بعضهم في الرياض (قرب دلة) وإني أشهد ان أكثرهم رجال عظام، لا يصرحون بما في خاطرهم حول وجوب تنازل آل سعود عن الحكم لهم، فهم الأحق والأجدر به وقد اغتصب منهم. وما يدور في الخفاء لا نعلمه، إلا ان بعض نسوتهم قبيحات الكلام والفعال، يصدحون بذلك في وسائل الإعلام والتواصل، بخاصة المقيمات في لندن، يجلبون الخزي والعار ليس

لأنفسهم وأهلهم فقط، بل لمن يصدقهم ويقبل ترهاتهم عن حقهم في الحكم. والسؤال هو ماذا فعلتم للوطن وأهله، سواء في حائل أو جنوبها وشمالها؟ والجواب هو التنكيل بخاصة لأهل السنة مثلكم، وتعزيز مكانة الروافض واليهود والكرد سواء في أسواق برزان والمدينة والنجف، ونشر الفواحش والفساد ومساندة الشطار واللصوص. ومع المحبة والتقدير لمعاصرينا من آل رشيد الكرام، إلا ان من يرفض قولي ويدعي ان حقوقهم في نصف الحكم أو ربعه أو كله منتهكة، بأقويل تثير كل "خبيل الرأي قليل الدبرة" فيقلدهم، ساعياً لتدمير الوطن العظيم، وهم يستحقون ان يكونوا أول من يتصدى لها. أما من ينفي أقاويلي حول سياستهم في إدارة الحكم في حائل، فأرجو منه إجابتي عن نحر طلال؟ ومن قتل متعب بعده بشهور، ثم مقتلة أبناء طلال على يد عمهم المهاد. وماذا فعل آل عبيد مع أبناء عمهم (الجنازة) ثم ألم يقتل آل حمود مع بعضهم البعض؟ وسفكت الدماء المحرمة للحصول على كرسي إمارة تافه. وبعد ان استقر الأمر لسعود (أبوخشم) دعاه قرابته لنزهة برية، وفتتوا جمجمته بغرض الاستيلاء على الحكم، فمن يأمن سوء عملكم بعد ذلك السجل المخزي؟ ومن هذا عملهم مع القرابة كيف هو مع الأبعاد؟ وما الذي سيمكنكم عمله لرفع مكانة الوطن، ومن سيأمن جانبكم بعد ان غدرتم بذرية سيدكم وولي نعمتكم (الإمام فيصل) وهل حقاً تغيرت طباع الطامعين في الحكم؟ وماذا بشأن بقية فروع قبيلة شمر، مثل الجربا والياور الذين رفضوا الانقياد لسلطة الرشيد، وحتى عشائر عبدة رفض أكثرها الانصياع لهم. بخاصة لما رأوا سوء إدارة الحكم، الذي دبته الست فاطمة السبهان، والإساءات للأهالي والجيران. ولا يسعني مغادرة الفقرة بدون ذكر ان الاقتتال في بعض الأسر موجود، وقد قتل أحد ذرية سعود بن محمد خاله (الإمام تركي) وبعد أكثر من قرن قتل أمير عمه الملك فيصل، لا ليستولي على الحكم بل ليثار لأخيه، الذي توفي أثناء تبادل إطلاق النار مع حرس التلفزيون! والأمثلة على ذلك كثيرة في عدة أسر حاكمة، سواء في الدول النامية أو المتخلفة أو الراقية، لكن معظم تلك الحوادث متباعدة، أو ليست لغرض تولي الحكم، أما هنا فتتكرر في ظرف شهور وبطريقة وحشية.

إنني أوكد بل وأشهد ان كافة من تعرفت عليهم من آل رشيد، سواء في مناسبات عملية أو لقاء الجوار، كانوا آية في حسن الخلق وشموخ الشيمة ونزاهة التصرف، ولم أسمع من أحد منهم دعوى أحقيتهم بالحكم، بل الولاء لمن انعقدت له البيعة الشرعية. وإنما تصدر تلك الدعاوى من أبواق أجنبية شريرة، تبغض الديار السعودية بل جزيرة العرب كلها، ويستغلون بعض المواطنين للتحريض على اتلاف الوطن، سواء كانوا من آل رشيد أو أسر أخرى! لها أقوال مشابهة. وتوسوس لهم الشياطين بأوهام يظنونها ترفع قدرهم، ولكنها وبال عليهم وقرابتهم وانتقاص مكانتهم، بدون إدراك ان كل شيء لا يمكن ان يحدث إلا بعد ان يقيض الله الزمن الملائم، فهو وحده يؤتي الملك من يشاء وينزعه عن من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. أما الجعجة الفارغة في

غير زمانها ولا ظروفها فلا جدوى منها، وحبذا لو ينصرف الجميع لتحسين أحوالهم الشخصية، بدلا من تتبع هفوات الحكام بما يظنونهم يرفع قدرهم وهو وبال عليهم. وليذكروا أقوال عائل الفقهاء: —

إذا رمت ان تحيا سليماً من الأذى **** ودينك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ **** فكلك عورات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معايباً **** فدعها وقل يا عين للناس أعين

وبخاصة حينما تكون ادعاءات هضم الحقوق في الحكم ونقد الهفوات، تأتي من منابر أجنبية مشبوهة، بل ومعروفة منذ عشرات السنين، ببغضها لعادات وثقافة جزيرة العرب، فتلك جناية على النفس قبل ان تكون جريمة ضد الوطن، نسأله تعالى الهداية والرشاد لنا جميعاً. وليقبل عذري السادة والسيدات الكرام، من أسرة الرشيد الذين يعملون لنهضة بلادهم الغالية، فما ذكرته من وقائع ليس الغرض منها المس بهم، لكنه تنويه بتعالى أصوات بعضهم بما يتجاوز الحد، ويمس تماسك البلاد الغالية علينا جميعاً. وهذا المخطوط ليس للنشر والتداول، كما نوهنا في المقدمة أنه لاستخلاص العبرة من السيرة، وإني مستعد لتعديل أي معلومة خاطئة، وردت هنا فور تعرفي عليها، وعلى الله قصد السبيل.

في ختام هذا الجزء أنه للأحبة مرة أخرى، ان هذه سيرة والدنا (جدكم الأعلى) وليست عن تاريخ البلاد، التي لم يكن بمعزل عنها قط، فقد تأثر وأثر في بعض أحداث بلاده، لكن القصد استخلاص العبرة منها بما يفيدنا. لقد أوضحت لكم في السطور السابقة بعض العبر من سيرة محمد بن رشيد (الكبير والمهاد والعقيم الأبر والاشجاع والمحنك والداهية والقاسي) كما لقبوه. لكنني في الجزء التالي سأسرد شيء يسير من علاقة والدي، مع الملك عبدالعزيز (العظيم) وعليكم استخلاص العبر، فقد كان أكثر نكاء وقوة من ابن رشيد، وبدون عنجهية وقسوة وعليكم المقارنة. وسنستهل الجزء التالي من السيرة، من مرحلة بلوغ صاحبها سن التكليف، ونعرج في بعض الفقرات على ما سبق ذلك، مما رأيت ان فيه عبرة تساعدنا في اتخاذ قرارات صائبة، تؤدي للنجاح وخير الدنيا والآخرة بعونه تعالى. أما ما قد يتعلق بتاريخ المملكة، فالمصادر الرسمية والشخصية تسرده لكم بإسهاب، لا يخلو من التناقض أو المغالطة حسب هوى من يخطه، واقتراح عدم التوقف طويلاً أمام ذلك، والتوجه نحو استخلاص العبر من سيرة جدكم، وحسب ما سبق ان ذكرت في المقدمة.